الفصل العاشر

الأشراف

كان العرب يقولون : الشرف نَسَبٌ ، يقصدون أنه فى الدم ؛ وأول ما يجب أن يتوفر للسيد أن يكون جواداً شجاعاً ، ومن خصاله أن يكون عاقلاً متئاثلاً .

كما قال الفرزدق :

كأن فيه إذا حاولته بَلَهًا ‏ ‏ عن ماله ، وهو وافى العقل والورع

وكما قال الشاعر :

ليس الغبيُّ بسيد فى قومه ‏ ‏ لكن سيد قومه المتغابى[1]

ولا بد أن يكون عظيم الرأس ، ومن لم يكن عظيم الهامة فليس بسيد[2] — كالكاتب فمن صفته أن يكون صغير الهامة[3] — ومن صفاته أن يكون كثَّ شعر الناصية ، أشمّ عرنين الأنف ، واسع الأشداق[4] ، غير مستدير الوجه ، عريض الصدر والمنكبين ، مديد الساعد ، طويل الأنامل[5] . ويُكره فى السيد

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة طبعة بروكلمان ص ٢٧١ .

(٢) نفس المصدر ٢٧٠ .

(٣) صبح الأعشى للقلقشندى طبعة دار الكتب المصرية سنة [illegible] م ج ١ ص ٦٢ .

(٤) وهذه أيضاً صفة كرام الخيل .

(٥) ومن صفات رأس الجالوت (رئيس اليهود) أن يكون طويل الباع تبلغ أنامله ركبتيه (مجلة الأبحاث اليهودية مجلد ٥٩ (١٩١٠) ص ١٢١ وما يليها ؛ ومفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٣٥) ؛ ومن صفات المهدى عند السنوسيين بإفريقية أن تبلغ أنامله الأرض ، (انظر M. Hartmann, Af. R. 1, S. 266).

التصنّع في اللباس والمشية ؛ ولذلك يقال : « عمامة السيد ملوثة [أو ملوية] أي يديرها على رأسه كيفما اتفق[1] » . ويحكى عن الفضل بن يحيى أحد رجال الحاشية في العصر العباسي أنه قال : « الناس أربع طبقات : ١ — ملوكٌ قدّمهم الاستحقاقُ ، ٢ — ووزراء فضّلتهم الفطنةُ والرأى ، ٣ — وعِلْيَةٌ أنهضهم اليسار ، ٤ — وأوساطٌ ألحقهم بهم التأدُّب ؛ والناس بعدهم زبدٌ جُفاء ، وسيل غُثاء ، لُكَع ولَكاع ، وربيطةُ اتّضاع ، همُّ أحدهم طعمه ونومه[2] .

وكان الشرف والسيادة نتيجة للمال والسيطرة السياسية ، وهما شيئان في غاية الدناءة . وقد أهمل المسلمون مسألة الدم وخصوصاً دم الأم إهمالا شديداً ؛ وذهبت قلة الاكتراث بذلك إلى حد أن جميع الخلفاء في القرنين الثالث والرابع للهجرة كانوا أبناء جوار من الترك أو الروم ؛ وكاد رجلٌ أسود في أوائل القرن الثالث الهجري أن يرتقي إلى عرش الخلافة[3] .

على أن الإسلام أوجد نوعا من شرف الدم لا يزال باقيا إلى عصرنا هذا ، وذلك في قرابة النبي أو بني هاشم أو أهل بيت رسول الله أو « أهل البيت » باختصار ؛ وكانوا يأخذون ، باعتبارهم قرابة النبي ، راتبا من الحكومة ، وكذلك حرمت عليهم الصدقة هم ومواليهم[4] . وكان لهم قضاء مستقل بهم يتولاه نقيبهم

---

(١) أنباء نجباء الأبناء ، مخطوط برلين رقم ٩٥٠٧ ص ١٤ ب ومخطوط رقم ٦٠٣٢ ص ١٥ ب ، وهذا الكتاب لابن ظفر المكي المتوفى عام ٥٦٥ هـ — ١١٧٠ م .

(٢) مختصر كتاب البلدان لأبي بكر أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه ، طبعة ليدن عام ١٣٠٢ هـ ص ١ .

(٣) هو إبراهيم بن المهدي ، وأمه أم ولد سوداء ، وكان شديد السواد برّاق اللون طويلا بديناً ، حتى كان ينبز بذلك (مطالع البدور لمنزول ج ١ ص ١٣ ؟) .

(٤) رسائل الجاحظ طبعة فان فلوتن ص ٧ .

الذى يعيّنه الخليفة[١] . وكان لهم نقيب لا فى بغداد فقط ، بل فى جميع المدن الكبرى مثل واسط والكوفة والبصرة والأهواز[٢] . وفى سنة ٣٥١ هـ — ٩٦١ م كانت نقابة الطالبيين بمصر للشاعر أبى القاسم أحمد بن محمد بن إسماعيل طباطبا[٣] . وكان نقيب العلويين فى عهد الفاطميين أيضاً من كبار رجال دار الخلافة[٤] . وقد انتهى إلينا كتاب بتقليد أبى أحمد الحسين بن موسى نقابة الطالبيين سنة ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م ، ونرى من هذا الكتاب أن " قيب هو الذى يحكم أيضاً فى النزاع بين الطالبيين و بين سائر رعية الخليفة[٥] " .

وكان الفرعان المتعاديان من أهل البيت ، وهم العباسيون الذين وصلوا إلى الرياسة ، والطالبيون الذين لم يبلغوها ، يخضعون جميعا لنقيب واحد حتى القرن الرابع[٦] . وفى آخر هذا القرن صار لكل فريق منهم نقيب خاص ؛ والسبب الأقوى فى ذلك أن العباسيين بدأ أمرهم فى الضعف و بدأ الآخرون فى القوة ، فلم يستطيعوا أن يحتملوا إشراف أحدٍ على أمرهم ؛ وقد مهدت ظروفُ ذلك العصر الطريقَ لما عليه الأشرافُ اليوم .

وكان كل من العلويين والعباسيين يخاطَب بالشريف[٧] ؛ ولم يكن للعلويين شارةٌ يتميزون بها كما تدل على ذلك الحكاية التى أوردها عريب بن سعيد

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ، طبعة إنجر ص ١٦٥ .

(٢) المنتظم لابن الجوزى ص ١١٥ ب .

(٣) المغرب لابن سعيد ص ٤٩ .

(٤) Becker, Beiträge, 1, S. 38 نقلا عن المسبِّحى .

(٥) رسائل الصابى طبعة بعبدا (لبنان) ١٨٩٨ ص ١٥٣

(٦) عريب ص ٤٧ .

(٧) فيما يتعلق بالعلويين انظر كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخى ج ٢ ص ٤٣ ، والإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٥٦ وفيما يتعلق بالهاشميين انظر المنتظم لابن الجوزى ص ٩٢ ب .

القرطبي في كتابه صلة تاريخ الطبري[١] ؛ أما اللون الأخضر فلم يُجعل شارة لهم إلا أخيراً في القرن الثامن الهجري[٢] .

وكان يُعطى لكل واحد من بني هاشم ببغداد دينارٌ في كل شهر في عهد المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ = ٨٧٠ — ٨٩٢ م) ؛ أما الذين خرجوا من بغداد فقد تركوها خواة الوفاض . ثم اقتصر الخليفة المعتضد على رُبع دينار . وكان عدد بني هاشم بالحضرة أربعة آلاف نفس ، وجملة الجاري لهم ألف دينار في الشهر[٣] ؛ وفي سنة ٢٠٩ هـ — ٨٢٤ م أحصى عدد العباسيين ، فكانوا ثلاثة وثلاثين ألفا[٤] ؛ على حين أن الجاحظ حوالي ذلك الوقت يقول : « إنّ آل أبي طالب أحصوا منذ أعوام وحصلوا ، فكانوا قريبا من ألفين وثلاثمائة »[٥] .

وكان يجري لمشايخ الهاشميين راتب خاص يذكر في الميزانية مع أرزاق الخطباء في المساجد الجامعة ؛ وجملة ذلك ستمائة دينار في الشهر[٦] . وكان لأولاد الخلفاء جارٍ خاص ، وإن كان قليلا ؛ فكان المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠٢ م) يجري على أولاد المتوكل وأولادهم رجالا ونساء ألفَ دينار في الشهر ، وكان يعطي أولاد الواثق والمهتدي والمستعين ومن في قصر أم حبيب خمسمائة دينار في الشهر ، وأجرى على ولد الناصر عبد الواحد وإخوته خمسمائة

---

(١) غريب ص ٤٩ .

(٢) انظر الفصل الخاص بالشيعة .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٠ .

(٤) الطبري ج ٣ ص ٩٦١ (ف) وكتاب العيون ص ٣٥١ (ف) ، ولعله يشير الى الجزء المطبوع .

(٥) كتاب الفصول للجاحظ مخطوط رقم ٣١٣٨ بالمتحف البريطاني ص ١٢٠٧ .

(٦) كتاب الوزراء ص ٢٠ .

دينار أيضا[1] . ولذلك لم يَخْلُ العلويون من بعض المخاطرين الساخطين ، وكانت بخارى مركز هذه الجماعة الذى إليه يأوون ، لأنه كانت ببخارى أكبر حكومة غير شيعية بعد بغداد . وفى حوالى سنة ٣٨٠ هـ التقى ببخارى بعض أولاد الخلفاء مثل أبى طالب المأمونى وأبى محمد الواثق ، وابن المهدى وابن المستكفى[2] . وكان أبو محمد الواثق يشهد بنصيبين عند الحكام والقضاة ، وإليه مع الشهادة الخطابة فى المسجد الجامع ؛ ثم أفسد على القاضى أمره ، فأخرج من بغداد ، فقصد خراسان راجيا أن يقلّد قضاء أو ديوان بريد ؛ فلم ينل ما أراد ، فذهب مناضبا يتوغل فى بلاد الترك ، حتى ألقى عصاه بحضرة بغراخاقان ، وافتعل مع رجل آخر كتابا عن الخليفة بتقليده العهد بعده ، حتى اضطر الخليفة أن يكتب بتكذيبه إلى خراسان وسائر الأطراف ؛ ولم يزل الواثق يزيّن لبغراخاقان إزالة الدولة السامانية والاستيلاء على المملكة ؛ وبنى التدبير على أن تكون له الخلافة ، ويتقلد التركى أعمال خراسان وما وراء النهر من يده ؛ فألم التركى فى جيوشه ببخارى واستولى عليها ، ولكنه مات قبل تحقيق نهاية التدبير ، وعاد الواثق إلى بغداد سراً بعد فشل تدبيره ، ولكن الخليفة فطن إليه واضطره إلى الخروج ، فعاود بلاد الترك ، وتقلّبت به الأحوال ، حتى قبض عليه يمين الدولة محمود بن سبكتكين ، وحبسه فى إحدى القلاع موسّعاً عليه ، حتى مات[3] . أما المأمونى فكان أيضاً يسمو بهمته إلى الخلافة ويُمَنّى نفسه قصد بغداد فى جيوش تنضمّ إليه من خراسان لفتحها ، فاقتطعته المنية دون بلوغ الأمنية ، ولم يكن بلغ

---

(١) نفس المصدر ص ٢٠ .

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٨٤ — ٨٧ ، ١١٢ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٤٢١ وما يليها ، ويتيمة الدهر ج ٤ ص ١١٢ — ١١٣ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١١٧ — ١١٨ .

الأربعين ، وكانت وفاته سنة ٣٨٣ هـ — ٩٩٣ م[1] . ثم حاول محمد بن الخليفة المستكفي الذي خُلع سنة ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م أن يستولى على الدولة ، مستعيناً بما جاء في الأخبار من ظهور المهدى . فظهرت دعوته بين الخاص والعام ، وادّعى أنصارُه أنه « يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويجاهد أعداء المسلمين ، ويجدد ما عفا من رسوم الدين » ، فتطلعت إليه نفوس العامة ، وجعل دعاته يأخذون له البيعة على الرجل بعد الرجل . فمن كان من أهل السنّة قالوا له إنه عباسى ، ومن كان من أهل التشيع قالوا له إنه علوى ، ودخل جماعة من وجوه الكتّاب وأماثل الناس في هذا الأمر ، ودخل فيه خلق كثير من الديلم والترك والعرب . وكان فيهم سبكتكين القائد العجمى ، وكان يتشيّع ، فقال له الدعاة : إن الرجل علوى ؛ ووعدوه بأن يقلّد إمرة الأمراء ، فاستجاب للدعوة ؛ ثم ظهر لسبكتكين أن الرجل عباسى لا علوى ، فتغيرت نيته وتصوّره بصورة المحتال ؛ ثم انتهى أمره بأن قبض عليه بختيار وعلى أخيه وأسلمهما للخليفة المطيع لله ؛ فأمر بجدع أنف صاحب الدعوة ، وقطع أذن أخيه وحبسهما ؛ ثم هربا وخفى أمرهما[2] .

وكان الهاشميون ، إلى جانب ما يجرى لهم من راتب خاص ، يقدّمون في تولى مناصب مشرّفة يصيبون منها المال بلا مبالاة ولا مراجعة ضمير : فكانت تسند إليهم إمامةُ كثير من المساجد[3] ؛ فمثلا كان أحد الهاشميين (توفى عام ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م) إماماً لجامع المنصور ببغداد ، وهو أكبر جامع في الدولة

---

(١) اليتيمة ج ٤ ص ٩٤ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٠١ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٣١٥ — ٣١٧ .

(٣) كتاب الخراج لقدامة بن جعفر مخطوط باريس ص ١٤ .

الإسلامية[١] ؛ وكان إمام جامع عمرو بمصر فى مثل هذا الوقت هاشميا أيضاً[٢] ؛ وكذلك تولى منصب قاضى القضاة فى عامى ٣٦٣ هـ — ٩٧٤ م و ٣٩٤ هـ — ١٠٠٤ م رجلان من بنى هاشم[٣] . وفى أواخر القرن الرابع كان أبو محمد الواثق من ولد الواثق بالله أمير المؤمنين يتولى الخطبة فى المسجد الجامع بنصيبين[٤] ؛ كما كان الذى يحج بالناس فى كل عام رجلا من بنى هاشم ، وهذه مهمة يصيب من يقوم بها شيئاً كثيراً ؛ وكانت لا تخرج من يد الهاشميين . ولما احتاج المأمون أن يستعين بالعلويين على أخيه الأمين تولى الحج بالناس رجالٌ من الطالبيين منذ عام ٢٠٣ هـ ، وكانت هذه أول مرة يحج فيه الطالبيون بالناس ؛ ولكن إمارة الحج عادت إلى الهاشميين بعد ذلك بثلاث سنين ، وبقيت لهم حتى آخر أيام المسعودى عام ٣٣٦ هـ — ٩٤٧ م[٥] ؛ ثم آلت إلى العلويين ، وكانوا ينيبون من بينهم من يقوم بالحج[٦] .

وكانت أول ما تُعطى البرات إلى أقارب النبى ، فكان أحمد بن أبى يعقوب ابن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن الداية (توفى عام ٣٤٠ هـ) يُجرى بمصر فى عهد ابن طولون الجرايات على الأشراف الطالبيين ، ومنهم من كان ينال مائتى دينار فى كل سنة[٧] . وكان الوزير على بن عيسى فى أوائل القرن الرابع ينفق كل سنة أربعين ألف درهم فى صلات الطالبيين والعباسيين وأولاد الأنصار

---

(١) المنتظم ص ٩٠ ب .

(٢) ملحق الكندى ص ٥٧٥ .

(٣) المنتظم ص ١٠٥ ا — ب ، ١٤٩ ب .

(٤) كتاب الوزراء ص ٤٢١ .

(٥) مروج الذهب ج ٩ ص ٦٩ وما يليها .

(٦) المنتظم ص ١٢٩ ب ، وابن الأثير ج ٩ ص ٥٤ ، على أن إمارة الحج بمصر ظلت فى أيدى الهاشميين . انظر ملحق الكندى ص ٥٧٥ .

(٧) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ١٥٩ .

والمهاجرين وفى مصالح الحرمين[١] . وفى سنة ٣٣٤ هـ وصل الخليفة المطيع لله العباسيين والعلويين فى يوم بنيف وثلاثين ألف درهم[٢] ؛ وكان أبو العلاء المعرى يصل بعض العلويين ، و بعث إليه مرة بشىء من النفقة ، وأرسل له يعتذر لقلته ويرجوه قبوله[٣] . ومن الأمثال المعروفة أن العلوى يأخذ ولا يعطى[٤] ؛

وإذا نظرنا إلى قلة جارى بنى هاشم ، وهو ربع دينار فى الشهر ، علمنا أنهم لا بد أن يكونوا جميعاً علويين وعباسيين فى فاقة شديدة ؛ ونجد أحد الهاشميين يشتغل عيناً يجمع الأخبار ؛ وفى عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م وقع غلاء ومجاعة ؛ فقُتل كثير من النساء الهاشميات لأنهنّ كن يُقتّلْنَ الأطفال ويأكلن لحمهم[٥] . وكان عند الصاحب بن عباد ، وزير فخر الدولة بشمال فارس ، علوىٌّ شامىٌّ يحدثه عما شاهد من الأعاجيب[٦] . وقد تحدث ابن الحجاج (توفى عام ٣٩١ هـ — ١٠٠١ م) فى بعض شعره عن مغنية هاشمية سيئة السيرة[٧] . ومما يحكى عن كافور الأخشيدى صاحب مصر أنه وقفت له امرأة فى طريقه وصاحت به : ارحمنى يرحمك الله ، فدفعها أحد رجاله دفعاً عنيفاً ، فسقطت ؛ فاغتاظ كافور وأمر بقطع يده ؛ فقامت تشفع له ؛ فتعجب من مكرمتها ؛ وقال : سألوها عن أصلها ؛ فما تكون إلا من بيت عظيم ؛ فسُئلت ، فإذا بها علوية ؛ فعظم الأمر على كافور وقال : قد أغفَلنا الشيطان عن نساء الأشراف ؛ وأحسن إليها وتفقد سائر نساء

---

(١) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .
(٢) المنتظم ص ٧٤ ا .
(٣) رسائل أبى العلاء طبعة مرجليوث ص ٣٥ .
(٤) كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخى .
(٥) يحيى بن سعيد ص ٨٧ ا والمنتظم ص ٧٤ ب .
(٦) محاضرات الأدباء ج ٢ ص ٢٩٥ .
(٧) ديوان ابن الحجاج ١ ص ١٤١ .

الأشراف وأدرّ عليهن الإحسان والجرايات[1] . وفى سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م وقعت فى بغداد فتن عظيمة أصلها أن رجلاً عباسيا عربد على رجل علوى ، وهما على نبيذ ، فقتل العلوى ونفر أهله واستغاثوا لأجله ، ودخلت العامة ، وعظم الأمر ؛ وكان « أمام النبى » من أكبر مشعلى نيران الفتنة بين عامة بغداد[2] .

وفى عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م وثب جماعة من الهاشميين على الوزير على بن عيسى بسبب تأخر أرزاقهم فشتموه وخرقوا دراعته ، وأرجلوه ؛ فخلصه القواد منهم ؛ واتصل ذلك بالمقتدر فأمر فيهم بأمور عظام وبأن ينفوا إلى البصرة مقيّدين ؛ فحملوا فى سفينة مطبقة بعد أن ضُرب بعضهم ، وأمر الخليفة أن يُحبسوا فى محبس البصرة ، فحملهم سبك الطولونى أمير البصرة مقيدين على حمير إلى دار فى جانب المحبس ، وكلمهم بجميل ووعدهم خيراً ، وفرق فيهم أموالا إلا أنه أسر بذلك . ثم نفذ كتاب بإطلاقهم ، فأحسن إليهم الأمير وصنع لهم طعاما ووصلهم ، وأكريت لهم سُميريات ، فكان مقامهم فى البصرة عشرة أيام[3] . وكان كلما قوى أمر الشيعة ببغداد وأظهروا الاحتفال بأعيادهم ، قابل العباسيون السنّيون ذلك بنهوض من جانبهم وفعلوا مثل ما يفعله الشيعة ؛ وأكبر من كان يفعل ذلك السنيون فى باب البصرة[4] .

وحوالى عام ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م وقعت فتنة عظيمة ببغداد — كما تقدم — بسبب نزاع بين علوى وعباسى ؛ فقبض الوزير المهلبى الحازم على كثير من مثيرى الفتنة من العباسيين وجعلهم فى زوارق مطبقة مسترة وأنفذهم للحبس فى بعض

---

(١) المقرب لابن سعيد ص ٤٨ .
(٢) كتاب الوزراء ص ٣٣١ .
(٣) غريب ص ٢٥ — ٢٦ .
(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ١١٠ .

مدن العراق ، فكانوا هناك حيث مات كثير منهم ، ثم أخفق الباقون بعد موت النهاني[١]

وقد أراد القائد عميد الجيوش فى سنة ٣٩٢ هـ — ١٠٠٢ م أن يضع حداً لهذه العداوة القديمة بين أهل السنة والشيعة ببغداد ، وهى العداوة التى كان المهيجون المتطرفون من العلويين والعباسيين يدعون الناس فيها للقتال والشغب ، وكان عميد الجيوش قد أرسل لإخماد الفتنة القائمة ؛ فطلب الثوار من العلويين والعباسيين ، فكانوا إذا وقعوا أمر أن يُقرن العلوى بالعباسى ويغرقا نهاراً بمشهد من الناس ، حتى هدأت تلك الفتن المستمرة ، وتجددت الاستقامة المنسية ، وخاف الغائب والحاضر[٢]

ثم جاء الوقت الذى يترقبه العلويون بعد طول انتظار ونفاد وصبر ؛ فأخذ نجمهم فى الصعود فى كل مكان ، على حين بدأ أمر العباسيين فى الضعف ؛ فيقول المقدسى فى كلامه عن إقليم خراسان مثلا : وأولاد على رضى الله عنه فيه على غاية الرفعة ، ولا ترى به هاشمياً إلا غريباً[٣] ؛ وهنا نجد القرن الرابع الهجرى قد أوجد الظروف والموقف الذى نراه الآن ، فالعلويون هم الذين يمثلون أهل بيت الرسول . وقد عمل الجميع من قرامطة وفاطميين على خدمة قضية العلويين ، فأنشأوا دولة علوية فى جبال فارس ، وفتحوا مكة بعد منتصف القرن الرابع ، وجعلوها عاصمة البلاد المقدسة ، واستطاعوا بدهاء أن يستغلوا المنافسة الشديدة القائمة بين القاهرة وبغداد لمصلحة هذا المركز الجديد[٤]

---

(١) كتاب الوزراء ص ٣٣١ — ٣٣٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٦٤ ، والمنتظم ص ١٤٧ ب .

(٣) المقدسى ص ٣٢٣ .

(٤) المغرب لابن سعيد ص ٦ (٢) .

وكان الملوك الجدد فى الغرب والشرق وهم الحمدانيون والبويهيون على مذهب الشيعة ؛ وكان ازدياد التكريم للنبى مما أسبغ على أبنائه تكريماً كبيراً ؛ ويحكى ان ناصور الأخشيدى كان يوماً فى موكب ، فسقط منه سوطه ؛ فناوله إياه أحد الشرفاء ، فقبل يده شكراً وقال له « سنيتَ إلىَّ والله نفسى ، فما بعد أن ناولنى ولدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطى غايةٌ يُتَشَرَّف لها » ؛ فمات عن قريب[1] . وكان الأخشيد يخلف أباه طغجا على طبرية ، وكان أهلها شيعة ؛ وكان بها أبو الطيب العلوى وَجْهَ البلد شرفا وملكا وقوة ؛ فكتب الأخشيد لأبيه يذكر أنه ليس له أمر ولا نهى مع أبى الطيب[2] .

وكان الأخشيد بريئاً من كل تحيّز فأحضر عبد الله بن طباطبا والحسين بن طاهر بن يحيى إلى مجلسه ، « وكانا لا يفارقانه ، هذا حسنى وهذا حسينى ، وبينهما عداوة الرياسة والاختصاص[3] » . والحسين بن طاهر هو الذى أرسله الأخشيد إلى سيف الدولة ليفاوضه من أجل السلام وتحديد الحدود بينهما[4] ؛ وهو الذى سفر أيضاً بين الأخشيد وبين ابن رائق فى الصلح ، حينما جاء ابن رائق مهاجماً لمصر فى عام ٣٢٧ هـ — ٩٣٩ م[5] . وكان الحج قد تعطل منذ عام ٣١٧ هـ حتى عام ٣٢٧ هـ لاعتراض القرامطة ؛ فكاتبهم أحد العلويين ، وكانوا يخشونه لشجاعته وكرمه ، حتى انتهى الأمر بتسهيل سبيل الحج[6] . وكذلك كان العلويون هم الذين يتوسطون عادة فيما يقوم من خصومات فى بيوت

---

(١) نفس المصدر ص ٤٧ .
(٢) نفس المصدر ص ٦ .
(٣) نفس المصدر ص ١٨ .
(٤) نفس المصدر ص ٤٢ .
(٥) نفس المصدر ص ٢٥ .
(٦) المنتظم ص ٦٠ ج ٦ .

الشيعة من بنى حمدان و بنى بُوَيْه ؛ و إذا عرفنا ما كان يعود على العلويين من هذا التوسط ، استطعنا أن نستنبط مقدار ما لحقهم من الخسارة حينما اضطرتهم حكومة بغداد أن يحدّدوا موقفهم بإزاء الفاطميين ، وأن ينبذوهم ولا يعتبروهم من أبناء علىّ الحقيقيين . وفى سنة ٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م صدر كتاب من الأمير بهاء الدولة بأن يضاف إلى الرضى الموسوى النظر فى أمور جميع الطالبين بجميع البلاد ، وجعله نقيب النقباء ، ولم يبلغ ذلك أحد من أهل البيت[(1)] ؛ وخُلع على الرضى السواد ، فكان أول طالبى لبس السواد على زىّ العباسيين[(2)] ؛ وكان فى هذا إقرار من جانب ابن عم العباسيين الذى كان أقوى منهم من قبل بأنه قد هُزم .

أما أبناء الخلفاء الثلاثة الراشدين فلم يلعبوا دوراً هاماً؛ ولما اشتد البلاء على أهل مصر من ولاية العُمَرى القضاء عليهم خرج جماعة إلى هرون الرشيد ، وشكوا إليه ما يفعله العُمَرى فيهم ، فقال : انظروا فى الديوان كم لى من والٍ من ولد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فكُشف الديوان ، فلم يوجد غيره فقال : انصرفوا ! فوالله لا عزلته أبداً[(3)] ؛ ثم خلفه على القضاء هاشم بن أبى بكر البكرى من قِبَل الأمين عام ١٩٤ هـ ؛ وقد دخل مصر مُقِلًا ، فزرع زرعاً ، فانكسر عليه خراجُه ، وطولب به وتُشُدِّد عليه فى ذلك ؛ وكان أحد الكتاب حاضراً ، فعرفه وعرف الحال ، فقال : « سبحان الله ! ابن صاحب نبيكم والذى قام فى مقامه بعده يُطالَب

---

(١) ديوان الرضى ص ٢١٠ ، والمنتظم ص ١٥٨ ب .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٧٠ ، والمنتظم ص ١٥٨ ب .

(٣) القضاة والولاة للكندى ص ٤١٠ ، وفى سنة ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م مات الخطابى من ولد زيد بن الخطاب أخى عمر بن الخطاب ، وكان من العلماء . (انظر الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٨١) .

بمثل هــذه المطالبة ! ما كان عليه نهو علىّ ، وهو له علىّ فى كل سنة »[١] .
أما اليوم فنجد أبناء أبى بكر وعمر إلى جانب أبناء النبى عليه السلام هم الذين يتألف منهم الأشراف بمصر ؛ ونجد البكريين منهم بنوع خاص ، ويسمون الصديقيين ، يتولون منذ أوائل القرن التاسع عشر مناصب روحية تعود عليهم بالخير الوفير[٢] . ونجد حوالى عام ٤٠٠ هـ ، أبا النطاريف علاق بن غيداق العثمانى يقيم بنيسابور ، وينتسب إلى عثمان بن عفّان ؛ وكان كثيرَ الشعر قليل الملح ، وممن ثقُـل حتى خف وقُبُح حتى ملح ؛ يتعاطى الفواحش ، ويقول الشعر ، « فإذا قيل له : كيف أصبحت أيها الشريف ؟ قال : أصبحت جوالا فى السكك حلّالا للتكك ، على رأسه : طائركم معكم سرمداً ، وعلى جبينه - ولن تفلحوا إذن أبدا[٣] » .

هذه هى أهم السلالات الشريفة التى نشأت عن الدين[٤] . أما سلائل الأشراف الذين كانوا قبل الإسلام فقد احتفظوا بأنفسهم متمسكين أشد التمسك بما كان لهم ، وذلك فى الأجزاء الإقطاعية من جبال فارس وغاباتها وقلاعها ؛ يقول ابن حوقل . « وبفارس سُنّة جميلة وعادة فيما بينهم كالفضيلة ، من تفضيل أهل البيوتات القديمة وإكرام أهل النعم الأولية ؛ وفيها بيوت يتوارثون فيما بينهم

---

(١) القضاة للكندى ص ٤١٦ .

(٢) M. Hartmann, MSOS. 1909, II, S, 81.

(٣) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ . على أنه يظهر بصراحة من شعر هذا الرجل الذى كان يلقب بالشريف أنه كان مولى لرجل من موالى عثمان بن عفان . (المترجم)

(٤) ومن الأشراف الذين أوجدهم الدين سلائل الأنصار الذين ناصروا النبى عليه السلام ، وكانوا لم يزل يعيشون ببغداد وكانت تفرق عليهم المبرات . انظر المنتظم ص ١١٢ أ ؛ وكتاب الفرج

أحوال الدواوين على قديم أيامهم إلى أيامنا »[١] ؛ والغالب على ملوكهم وخلفائهم والمخالطين للسلطان من عمال الدواوين وغيرهم « استعمالُ المروءة فى أحوالهم ... وتحسينُ الموائد بالمطاعم وكثرة الطعام وإحضار الحلوى والفواكه قبل الموائد ، والنزاهة عما يقبح به الحديث من الأخلاق الدنية ، وترك المجاهرة بالفواحش ، والمبالغة فى تحسين دورهم ولباسهم وموائدهم ، والمنافسة فيما بينهم فى ذلك ، والآداب الظاهرة فيهم والعلم الشائع فى جميعهم »[٢]

أما سادة العهد الأموى فلم يستطع الاحتفاظ بمركزهم منهم إلا المهالبة ، بنو المهلب بن أبى صفرة ؛ وكان مقرّهم بالبصرة حيث كانت لهم دور حسنة[٣] . وقد كان لأحدهم شأن فى ثورة الزنوج الكبيرة فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى[٤] ؛ ولعله كان يتوقع فى ذلك العهد نهاية دولة بنى العباس . وتولى آخرُ من المهالبة وزارة عضد الدولة حوالى منتصف القرن الرابع . وقد أراد آل بنى الشوارب القضاة أن يقيموا بينهم و بين الأمويين و بالتالى ملوك قرطبة والمنتان[٥] نسبا[٦] . وكان البَنَويين أو أبناء الدولة الذين حاربوا لأجل الدولة العباسية وجاءوا معها من خراسان إلى بغداد — وكانوا من الأشراف المحاربين الأحرار — شأنٌ قوى فى القرن الثالث الهجرى ؛ وكانوا يفتخرون بالصبر تحت ظلال السيوف و بأنهم فرسان شجعان ؛ ومن قولهم : « وُلدنا فى أفنية ملوكنا وتحت

---

(١) ابن حوقل ص ٢٠٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٥ —

(٣) كتاب الرواة الشمالى مخطوط برلين ص ١٢٩ ب .

(٤) كتاب العيون ص ٦ ب — ٧ أ .

(٥) المسعودى ج ١ ص ٣٢٧ .

(٦) نجد فى كتاب العيون (ص ٧١) شعراً فى ذلك .

أجنحة خلفائنا ، فأخذنا بآدابهم واحتذينا على مثالهم »[١] ؛ ولكن حلّ محلهم في القرن الرابع فرسانٌ من المماليك المعتقين أو غير المعتقين أصلهم من الترك والفرس ؛ بل نجد أيضاً أن آخر سلائل الطاهريين ، الذين كان بيتهم في القرن الثالث ثاني بيت في المملكة الإسلامية بعد بيت الخلافة ، يعالجون في بلاط بخارى خدمة السامانيين ؛ وقد فقدوا ما كان لهم من مجد قديم ، ولكنهم لم يحرموا من المكانة الشعرية ، فكان منهم شاعر كان يخدم آل سامان جهراً ويهجوهم سرًّا ويطوى على بغض شديد لهم[٢] . وكان هؤلاء السادة جميعاً يسمون في جميع بلاد الشمال حتى بلاد الترك بالكلمة الرومانية البوزنطية : البطارقة[٣]

ويحدثنا ابن رستة في أواخر القرن الرابع أحاديث طريفة عن البيوت الكبرى في عصره : فأما الأشاعثة فقد كان جد الأشعث بن معدى كرب عِلْجا من أهل فارس إسكافا ؛ وكانت وردة بنت معدى كرب عمة الأشعث عند رجل من اليهود ؛ ولم تخلّف ولداً ، فأتى الأشعثُ عمرَ بن الخطاب يطلب ميراثها ، فقال له عمر : لا ميراث لأهل ملّتين ؛ وأما آل المهلب بن أبي صفرة فقد كان أبو صفرة فارسيا مجوسيا حائكا ؛ وأما آل خالد بن صفوان الأهتمين فإن الأهتم ابن علجة كانت امرأة أكار أخذها قيس بن عاصم بن سنان وجماعة من بني منقر أغاروا على الحيرة ؛ وآل الجهم بن بدر بن جهم بن مسعود كان جدهم مسعود

---

(١) رسائل إخوان الصفا طبعة كالكوتا ص ١ — ١٦ .

(٢) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٧ وما بعدها وص ١١ — ١٢ .

(٣) عند شاعر تركستاني في اليتيمة ج ٤ ص ٨١ ، وهو الشاعر أبو الحسن المتيم .

هبداً لحبيب بن شهاب ، هرب منه ولحق بخراسان وادعى أنه من بنى سامة بن لؤى القرشى ؛ وكان آل أبى دُلَف قوما من العبّاديين من أهل الحيرة ؛ وكانوا جهابذة بها ، فخرج جدٌّ لهم يقال له إدريس فأثرى ، وابتاع داراً بالبصرة ؛ ثم خرج إلى الجبل ، فأبو دلف من ولده ؛ والربيع الحاجب ، وهو رأس أسرة من كبار العمال ، كان ابن زنى من جارية سوء كانت عند مولى لعثمان ابن عفان[1] .

(١) الأعلاق النفيسة طبعة ليدن ١٨٩١ ص ٢٠٥ — ٢٠٧ .